وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مأربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم ؛ وهم عشرة ؛ قبل وعاء شقيقه ، كي ينفى احتمال ظنِّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك ؛ وليُطبِّق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقى شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٧٦) ﴾

[يوسف]

أى : ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر ؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقَّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفعه سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسبب أن يُنزِل بشقيـقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما فى المحنة من المنَح .

وعلى المـؤمن أن يعلم أن أىَّ أمر صـعب يقع عليه من غـير رأى منه ؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذَا علم ، فقال :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهـما مُنْفصل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : أن العلم ذاتىّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بُهِتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وُجدت السقاية فى رَحْله ؛ وأخذوا يُوبِّخونه ؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبَق منه معروف فى قولهم :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] .. ⑧ ﴾ [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتلطَّفوا به[2] . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالى هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالكم .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورد الحق سبحانه هنا قولهم :

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٦٩/٥) أن إخوته « لما رأوا ذلك نكسوا رءوسهم، وأقبلوا عليه قائلين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كاليوم قط . ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى » .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك فى مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿ إن يَسْرِقْ فقَدْ سرَقَ أَخٌ لَّهُ من قَبْلُ ..(٧٧) ﴾ [يوسف]

يُسمَّى فى اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية : أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثانى ، وهو هنا قولهم :

﴿ فَقَدْ سرَقَ أَخٌ لَّهُ من قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ .. (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فكأن الله يوضح للرسول ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عانَى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للمَلَكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك المَلَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوَّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردِّ .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »(١) .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٢) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧١) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، وليُسرِّب جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمَّته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به فى حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكنه قال رأيه فيهم لنفسه :

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

لأنكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لألعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وتركتم أبى بلا مؤانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحِى من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة « تَصِف » وكلمة « تصفون » غلب فى استعمالهما للكلام الذى يحمل معه دليلَ كَذِبه .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف ؛ بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨) ﴾ [يوسف]

ونلحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر فى السنِّ تكون من «كَبِرَ يكْبَر » ، وإنْ أردتَ الكِبَر فى المقام تقول : « كَبُرَ يكبُر ».

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

والكِبَر واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السِّنِّ فهو مختلف ؛ وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُـجز من أجل سرقة ، فهذا أمـر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر ؛ ونرجـو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمـته ، واسْتُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتمِّمَ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المـيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

ومَنْ يفـعل ذلك ؛ لا يضِنُّ عليهـم بأن يستـجيب لرجـائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممَّنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه فى هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنبٍ ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ « إذاً » مُنوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملةً محذوفةً ، أى : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التى ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحِقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجِد فى متاعه صُوَاع الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة[1] أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟[2] مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا[3] مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ[4] حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ويقال : « يئس » أي : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقِّقون كل ألوان المُرقِّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرقِّقاً ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلحُّون على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أي بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقةُ أملٍ

(١) الجريرة : الجناية والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب - مادة : جرر] .

(٢) استيأس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/٣٦٦] .

(٣) الميثاق والموثق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة]. أي : عهده الذي عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٤) برح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أي : لن أفارق أرض مصر . [القاموس القويم ١/٦١] بتصرف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَدًا ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا[1] ..(٨٠)﴾ [يوسف]

أي : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاونِين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسرَّة ؛ والمَسرَّة لا تكون إلا في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن ﴿ خَلَصُوا ..(٨٠)﴾ [يوسف] هي جمع ، و ﴿نَجِيًّا ..(٨٠)﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ لا يملكون مَلَكةً عربية : كيف يأتي القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملكة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[2] (٤)﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

---

(١) نجاه ينجوه نَجْواً : كلَّمه سراً وخصَّه بالحديث. فخلصوا نجياً أي : متناجين . تناجى الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديثه سراً . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] بتصرف.

(٢) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] بتصرف .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عَدْل » فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : « حكم القضاة عَدْلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿نَجِيًّا ..(٨٠)﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذى احتجزه عزيز مصر ؛ قال لهم رأيه الذى حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحَاط بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقةً حين أخذوا يوسف وضيَّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاَّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا فى نفس البلد .

وهذا القول فى ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحمَّلون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد فى الرحلة الأولى يوسف ، وفى الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذى يرأس الرحلة .

وفى هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُدَاولة بين الإخوة فى تلك المُنَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذى أوردته الآية التالية :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُوَاع الملك فى رَحْله ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له ؟ وهل هى حِيلة[1] ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُواع الملك فى رَحْله هو السبب فى كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابقَ لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم ـ إنْ كَذَّبهم ـ ما جاء به الحق على ألسنتهم :

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ[2] ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(١) الحيلة : الحذق فى تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو واحتال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥٨٠/٥) : « يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها » ، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك فى أقـوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه ؛ لأن هذا الموضـوع قد أحدث ضجَّة ، وحدث أمام جمـع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت مـعنا شهدتْ الواقعة ؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث ، وتَمَّ تفتيش العِير علناً .

فإذا أردتَ أن تتـأكد من صدق أقوالنا ، فـاسأل العِيـر التى كانت تسير مـعنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضـية كما نعـرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلحظ هنا أن الحـق سبحـانه أورد كـلام إخـوة يوسف لأبيـهم يعقوب :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا (٨٢)﴾ [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حَـدَثٍ من الأحـداث لا بُدَّ له من فـاعل ، ومن مفـعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فـيه ، ومن زمان يقع فـيه ؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحـالات نجد أن المكان هو الأمر الظـاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحـة تمـاماً لدرجـة أن الجمـاد يعرف تفـاصيلهـا ، أو : أنك نبيٌّ ويوحى لك الله فَسَـلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن العيـر هى المَطايا ؛ سـواء أكـانت نِياقـاً أو كـانت من الجمال أو الحمير أو البِغَال التى تحمل البضائع .

وحين يُقَال :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شىء فوق المُلاَبسات كلها .

ومثـال هذا ما كـان فى موقـعة بدر ؛ فـقد خـرج رسـول الله ﷺ ليلقَى العير القادمة من الشام وهى مُـحمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أمـوال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العِير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حـين تكلم عن المـقاتلين الذين قَـدِمـوا من مكة ؛ وصفـهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبـحانه ما جاء على ألسنة إخوة يـوسف حينما عادوا لِيلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخلُّف أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفـتيـشهم قـد تَمَّ فى مكان بعيـد قليلاً عن العُـمْران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التى عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمى المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكرروا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك ؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبتوا صدقهم ؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[(١)] عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

الأمور التى تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مَغَبَّتها[(٢)] ؛ هى أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسّر لها ، ما أن تُقدم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّل » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

أى : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظةَ أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الجمال : البهاء والحُسْن يوصف به الحسىّ والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] . وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . [القاموس القويم ١٢٨/١] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المغبة : العاقبة . غب الأمر ومغبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب ـ مادة : غبب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحَدّ ، بل ستأتى من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر فى النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [يوسف]

فى هذه الآية طلب الأمل الذى يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣)﴾ [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الإخوة الذى رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣)﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : يأتينى بهما .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ [يوسف]

فالله سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[1] (٨٤) ﴾

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسَّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هى افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْناه » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصيبتاه » ؛ فهذا يعنى أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به ؛ فكان حُزْنه على يوسف

---

(١) كظيم : أى سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ ، ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى : كربه وأحزنه وأسكته وشقَّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

طاقة من الهَمّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، هى افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذى لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ؛ وتذرف[1] عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ : أتبكى ؟ أو لم تكن نهيْتَ عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمقَيْن فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش[2] وجوه ، وشق جيوب[3] ، ورنة[4] شيطان »[5] .

وقد قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الذرف : صَبُّ الدمع. ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب ـ مادة : ذرف] .

(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [مختار الصحاح].

(٣) الجيوب : جمع جيب . والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبى : ٤٧٦٧/٦] .

(٤) الرنة : الصيحة الحزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . [لسان العرب ـ مادة : رنن] بتصرف .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى ، ولكن فى فتح البارى (١٧٤/١٠) زيادة : « صوت عند نغمة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون جلموداً[٢] أو يكون صخراً لا ينفعل للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً للأحداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعليها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد الله الإنسانَ بلا عاطفة أو غريزة لَفَعلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مُهمتها ، يقول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذِّب لك الانفعال .

والمثل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً[٣] .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسُّس على الناس .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلمد والجلمود : الصخر ، وهى الصخرة التى تكون فى الماء القليل . [لسان العرب - مادة : جلمد] .

(٣) الشَّره : أسوأ الحرص . وهو غلبة الحرص . والشَّرِه : السريع الطعام الشديد الحرص عليه . [لسان العرب - مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتى بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى فى إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هى التى تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعْلِى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾ [يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ(١) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا(٢) أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَٰلِكِينَ (٨٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : ومَنِ الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟

---

(١) فتأ وفَتِىء : زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٥٨٤] .

(٢) الحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب - مادة : حرض] بتصرف كثير . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٥) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقَال فى الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمنى يوسف . فعتب عليه الله فى هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى . قال : غفرتُها لك[1] .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤ /٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامى وعزاه لابن جرير الطبرى . قال طلحة : أنبئت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من همّ يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قال : فإنى قد غفرت لك. فكان بعد ذلك إذا سُئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [يوسف] .